معايير النحاة في انتقاء الكلام الفصيح ومو اقف المحدَثين منها

Sculptor's criteria for selecting eloquent speech and the attitudes of speakers

فدوة بلميلودي

طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، تكوين:

دراسة اللغة والنصوص الدينية والأدبية ـ المغرب

Email: fadouabelmiloudi@gmail.com

الملخص:

للفصاحة أهمية كبيرة عند العرب فهي تستند على أسس ثابتة وقواعد راسخة ومقاييس مشهورة و هي الأساس الذي بنيت عليه قواعد اللغة العربية، لذلك أسهمت في تأسيس الأصول و إقامة الصروح حيث عدّت من المواضيع التي جذبت إهتمام كثير من المحدثين المهتمين بالدراسات اللغوية العربية. و هذا البحث يروم إلى بيان وتبيين معايير إنتقاء الكلام الفصـــيح عند النحاة وموقف المحدَثين منها، فهو محاولة لتبيين مفهوم الفصـاحة و الفصـيح ثم بيان معايير انتقاء الكلام الفصـيح عند النحاة ابتداءا بالمعايير الزمكانية، مرورا بالقياسية، وصولا إلى مآخذ المحدثين على هذه المعايير.

الكلمات المفتاحية: الفصاحة ـ الفصيح ـ معايير انتقاء الكلام ـ المعايير القياسية.

Abstract

Eloquence is of great importance to the Arabs, as it is based on fixed foundations, well-established rules, and well-known standards, and it is the basis on which the rules of the Arabic language were built. Therefore, it contributed to establishing principles and erecting edifices, as it was considered one of the topics that attracted the attention of many modern scholars interested in Arabic linguistic studies. This research aims to clarify and clarify the criteria for selecting eloquent speech among grammarians and the position of hadith scholars towards it. It is an attempt to clarify the concept of eloquence and the eloquent, then clarify the criteria for selecting eloquent speech among grammarians, starting with spatial and temporal criteria, passing through analogy, and arriving at the hadith scholars' views on these criteria

Key words: Eloquence- the eloquent- criteria for selecting speech- standard criteria.

المقدمة":

إرتبط مفهوم الفصـاحة عند العرب قديما ارتباطا وثيقا بمفهوم اللغة، فقد شـرف الله عز وجل لغتهم بأن جعلها لغة كتابه المنزل، قال ابن خالويه في (شرح الفصيح): " قد أجمع الناس جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غيره " [1] فكانت بذلك ملكة على ألسـنة العرب، فسـماهم النحاة بالعرب الموثوق بعربيتهم، و قال الشـيخ يحي في رسـالته المسـماة (ارتقاء السـيادة) " والعرب المأخوذ عنهم هم الموثوق بعربيتهم، وهم: بنو قيس وتميم وأسـد وهذيل وبعض الطائيين " [2]لأنهم أتقنوا اللغة عن فطرة وبقوا على سـليقتهم اللغوية إلى غاية الفتوحات الإسـلامية حيث بدأت رقعة الفصاحة تتقلص تدريجيا وعدد الفصحاء السليقيين يقل باحتكاك العرب بغيرهم من الأجناس البشرية مما أدى إلى فساد اللسان وظهور ما يسمى باللحن، فلا غرابة من أن ينبري لها ولخدمتها العلماء الذين جمعوا معايير الفصاحة من منثور الكلام و منظومه، ضبطا لقواعد اللغة وتفسيرا لها وحفاظا عليها من كل خطر قد يحدق بها.

فما الدلالة اللغوية والاصطلاحية للفصيح ؟ وما هي معايير انتقاء الكلام الفصيح

عند النحاة ؟ وما موقف المحدثين من هذه المعايير التي اعتمدها النحاة ؟

---

١ ينظر: شرح الفصيح لابن خالويه والاقتراح للسيوطي، ص ١٣.

٢ ينظر: ارتقاء السيادة في علم أصول النحو، الشيخ يحي بن محمد أبي زكريا الشاوي المغربي الجزائري، تق و تح : الدكتور ع الرزاق ـ ع الرحمن السعدي ،ط ١ (العراق) هـ ١٤١١ –١٩٩٠م (الكتاب الأول في السماع) ص٤٧.

المحور الأول: مفهوم الفصيح والفصاحة

الفصيح في الأصل اللغوي :

فصاحة : مصدر للفعل الثلاثي المضموم العين " فَصُحَ " فالفاء والصاد والحاء أصل يدل على الخلوص والنقاء. ورى ابن فارس أن أصل المادة يرجع إلى اللبن : والأصل أفصح اللبن ؛ أي سكنت رِغْوَته[٣]

وللفصيح في اللغة عدة معان نذكر منها ما يلي : الدلالة على خلوص الشيء مما يشوبه.

وفصح الأعجمي أي جرى لسانه بالعربية،[٥] ويقال إذا جادت لغته حتى لا يلحن، قال ابن منظور: أفصح الصبي في منطقه إفصاحا إذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم.

إذن يتبين من استقراء مادة (ف، ص، ح) في معجمات اللغة أن أصلها الذي فرعت منه هو: الخلوص والنقاء، البيان وحسن الكلام، و السلامة من اللحن؛ أي عدم وجود عيب أو عقدة لطلاقة اللسان وسهولة التعبير.

الفصيح في الاصطلاح :

لقد وردت تعريفات مختلفة للفصاحة وهذا لغموض وتشعب مسالكها، والمقام لا يتسع لعرض جميعها لذلك سنكتفي ببعضها، يقول ابن الأثير" ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول في الفصيح والبحث عنه ولم أجد ما يقال عليه إلا القليل " ٥و حاول أن يبين مفهومها الصحيح فقال " وغاية ما يقال في الفصاحة هي الظهور والبيان في أصح الوضع اللغوي ".[٦]

---

[٣] ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس : مادة " فصح " ج٤ : ص ٥٠٦ ، تح : ع السلام هارون ، ط دار أحياء الكتب العربية ١٣٦٦-١٣٦٩ هـ .

و ينظر: الغريب المصنف لأبي عبيدة ، تح : محمد المختار العبيدي ٢/ ٥٨٨ .

* وللاستزادة ينظر : العين ج : ٣ ص ١٢١ / المحكم ج :٢ ص ١٨١ / إصلاح المنطق لابن السكيت ص ٢٥٤ / أدب الكاتب ص ٣٥٤.

[٥] ينظر: المثل السائر لابن الأثير، تح : محمد محي الدين ع الحميد ، المكتبة العصرية – بيروت ، ج :١ ص٨٠.

[٦] المصدر نفسه.

ثم توسع في تحليله قائلا " إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين وأعني بالظاهر البين أن تكون الفصاحة مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى الاستخراج من الكتاب واللغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في الكلام "[٧] و بالتالي لم يكن مفهوم ابن الأثير للفصاحة بعيدا عن ما فهمه السابقون عليه.

أما الطاهر ابن عاشور فقد عرف معناها حين قال: " فالفصاحة أن يكون الكلام خالصا، أي سالما مما يعد عيبا في اللغة بأن يسلم من عيوب تعرض للكلمات التي تركّب منها الكلام، أو تعرض لمجموع الكلام"[٨].

وعند تتبع معنى الفصاحة عند القدامى نجد أنها مرتبطة بسلامة العربية وخلوها من اللحن،أما البلاغيين خاصة الأوائل منهم فقد جاءت لصيقة بالفصاحة اللغوية، و لم تجري في مؤلفاتهم على معنى واحد بل وجدناهم فريقين: فريق يجعل الفصاحة في اللفظ المفرد وآخر يجعلها في النظم.

أما الفصاحة عند المحدثين فنجد علماء اللغة يتفقون في تعريف الفصاحة على أنها " اللغة السليمة من الخطأ والتي تتفق مع الضوابط العامة والقواعد المفيدة لكلام العرب قديما " [٩]

المحور الثاني : معايير انتقاء الكلام الفصيح عند النحاة :

لقد تقيد النحاة عند جمع المدونة العربية بالبث في أمر الفصيح وغير الفصيح والفصل بينهما بعدة معايير منها ما هو زماني، وما هو مكاني، وما هو اجتماعي .

المعيار المكاني :

سنركز على هذا المعيار تحديدا لأنه أول معايير السماع بدليل اهتمام العلماء به على الرغم من اختلافهم فيه على نحو كبير، أما المعياران الآخران فلم يكن فيهما خلاف ما.

إذن اقتضى هذا التعيين (المكاني)من النحاة أن يأخذوا المادة اللغوية من قبائل معينة ولعل أشهر النصوص التي أوردت هذه القبائل هو نص الفارابي، ويقول فيه: " إن النحاة حين حددوا قبائل الفصاحة وجعلوا لهجاتها مصادر للنحو العربي لم يقصروا الأخذ على قريش، بل لم يقبلوا الأخذ عنها، وإنما سمعوا ممن عداها من قبائل الحجاز و كان

---

٧ ينظر: المثل السائر، ص ٨١ـ ٦٥.

[٨] ينظر: جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام بن عاشور، الطاهر بن عاشور، تح: محمد الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط١(١٤٣٦هـ)ص(٣/ ١١٨٦).

[٩] ينظر : اللغة والنحو، عباس حسن ، دار المعارف ١٩٧١ ،ط٢، ص ٣٠ و ٢٦٠.

ـ للاستزادة في مفهوم الفصاحة، ينظر كتاب (علم الفصاحة مقدمة في النظرية والتطبيق).

الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق. فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم توحشا وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقياد وهم قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقون لم يؤخد عنهم شيء لأنهم كانوا من أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم "[١٠]

الفارابي إجمالا ينص على أنه لم يؤخذ عن حضري قط، أي أن النحاة العرب الأوائل قد احتجوا بلهجات بعض القبائل العربية وهمشوا لغات القبائل الأخرى بمعنى أنه أجمل الإشارة إلى القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة، واكتفى ببيان السبب العام، و هو المجاورة والمخالطة.

لكن هناك نحاة قد أخذوا عن قبائل لم ترد في هذا النص مثل سيبويه حيث "استشهد بشعراء بكر وتعلب بعد شعراء تميم وهوزان، كما استشهد بشعراء عبد القيس وإياد وغسان وقضاعة"[١١]

إذن فنص الفارابي لا يمكن أن يُتّخذ معيارا ولا سندا في بيان القبائل التي اتّخذت منها المادة اللغوية كما رأينا لأنه يناقض موقف النحاة أمثال سيبويه.

أما تمام حسان فيقول:"هو انتقاء قبائل بعينها في وسط الجزيرة دون غيرها من قبائل العرب "[١٢]

المعيار الزماني:

أو ما عرف بعصر الاستشهاد؛ عصر الفصاحة، الذي يجوز السماع من نصوصه والاستشهاد بها على القواعد، ويمتد حتى سنة (١٥٠هـ) مع إضافة قرن آخر إن كان الشاعر أو العربي عاش في قلب البادية، ويدخل في ذلك القرآن والحديث والشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام وشعر العصر الأموي ومطلع من العصر العباسي .

---

[١٠] ينظر: الألفاظ والحروف، الفارابي، تح وتق وتع : محسن مهدي – دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩،ص١٤٧/ وقد أورده السيوطي في المزهر والاقتراح بتصرف.

[١١] ينظر: أصول النحو دراسة في فكر الأنباري، محمد سالم صالح، دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٥٣.

[١٢] ينظر: الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو –فقه اللغة – البلاغة) لتمام حسان ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص ٩٧.

المعيار الاجتماعي :

هو المستوى اللغوي الذي يختار منه المسموع ، وقد وقع اختيار النحاة فيه على اللغة الأدبية دون لغة الكلام اليومي.

ومن خلال ما سبق نرى أن النحاة بنوا معاييرهم وخصوصا المعيار المكاني على معيار " الفصاحة " فظلت من مصطلحاتهم في ما يبدو حتى نهاية القرن الثاني الهجري، فلما قلّ استعمال هذا اللفظ بعدئذ في مصطلحهم أخذه البلاغيون فوسعوا مدلوله ليشمل المتكلم (كما كان يشمل القبائل الفصيحة)، و الكلام (كما كان يشمل اللغة الأدبية على ألسنة هذه القبائل؛ بمعنى خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد)، والكلم المفرد (الفصاحة التي اتخذت معنى جديدا، وهو الخلو من التنافر والغرابة ومخالفة القياس والكراهة في السمع).

وبالتالي اعتبرت المعايير المكانية هي السبب الرئيسي في وضع معايير بديلة، هي المعايير القياسية التالية:

المعايير القياسية: فصاحة المفرد.

أ) التنافر في الحروف: فهو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها، نحو: الهعخع، ومستشزرات[١٣] فمثلا كلمة (الهُعْخُع)؛ [١٤]هي صعبة النطق ثقيلة، وذلك لتقارب أحرفها في المخارج، فالهاء والعين والخاء كلها حلقية، واجتماع الأحرف الحلقية ثقيل ومخل بالفصاحة.

ويروى أن أعرابيا سئل عن ناقته، فقال : تركتها ترعى الهعخع.[١٥]

ونأتي إلى قول أخَفَّ من سابقه، قول امرئ القيس:

غَدائِرُه مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ ------العِقاصُ في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ.

فمستشزرات فيها من الثِّقل والتنافر؛ لتوسُّط الشين، وهي مهموسة رِخْوة بين التاء وهي مهموسة شديدة والزَّاي وهي مَجْهورة.

---

[١٣] ينظر: كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٧٣م، ص ٦٨.

[١٤] الهعخع : اسم لشجر أو ضرب من النبت وقيل، إنها موضوعة لمجرد التلفظ بهذا الصوت و لا أصل لها في اللغة.

[١٥] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تح : أ.د. أحمد شتيوي ، ط١، دار الغد الجديدة (القاهرة) ص ١٨.

ب) الغرابة: أن تكون الكلمة وحشية، لا يظهر معناها، مثال ذلك أنه روي عن عيسى بن عمر النحوي[١٦] أنه سقط عن حمار، فاجتمع عليه الناس، فقال: " ما لكم تكأكأتم علي تكأكأكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني "[١٧]فهذا القول جاء بألفاظ غريبة لم تتداول على الألسنة.

ج) مخالفة القياس: وهو القياس اللغوي، أن تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الألفاظ الموضوعة، أعني على خلاف ما ثبت عن الواضع، **مثل فك الإدغام والاشتقاقات الخاطئة وصرف الممنوع من الصرف**... مثال (لفك الإدغام) من أرجوزة أبي النجم العجلي [١٨]

الحمد لله العَلِيِّ الأجْلَلِ ***أعطى فلَم يَبْخَل ولم يُبَخِّل

فالقياس هنا يجب أن يكون بالإدغام، الأجَلِّ.

د) الكراهة في السمع: كون الكلمة وحشية، تأنفها الطباع وتمجها الأسماع، ك**عصبصب ، هِلَّوف السجسج، وكلمة العصبصب تعني شديد الحر، والهِلَّوف هو الذي يستر غمامه شمسه، و السجسج هي قول أن الأرض ليست سهلة ولا صلبة. ومن ذلك قول القائل: يوم عصبصب وهِلّوف ملأ السجسج طلا**[١٩].

فصاحة الكلام :

أ) ضعف التأليف: أن يكون تأليف أجزاء الكلام على خلاف النحو، كما في (ضرب غُلاَمُهُ زيدا)؛ فرجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظا ممنوع عند الجمهور.[٢٠]

---

[١٦] هو مولى خالد بن الوليد ت ١٤٩ هـ من مصنفاته (الإكمال في النحو)، ينظر كشف الظنون، ج : ٥ ، ص ٨٠٥ .

[١٧]ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة نفس (ص).

[١٨] اسمه أبو النجم الفضل بن قدامة بن عُبَيد العجلي البكري،(65هـ 130 – هـ685 / م747– م)، من الرجاز في العصر الأموي من بني عجل من بكر بن وائل وله مدائح في هشام بن عبد الملك وغيره من خلفاء بني أمية وله أخبار معهم، وذكره ابن سلام الجمحي وجعله في الطبقة التاسعة من شعراء الإسلام.

[١٩] ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث، باب فصاحة المتكلم، ج٥٣/٣.

[٢٠] وقيل يجوز لقول الشاعر النابغة الدبياني في ديوانه ص ١٩١: جزى ربه عني عدي بن حاتم ***جزاء الكلاب العاويات، وقد فعل والبيت من الطويل

ب)تنافر الكلمات: و هو أحد العيوب التي تؤدي إلى عدم الفصاحة، كعسر النطق بالكلمة بشكل متتابع كما في البيت الذي أنشده الجاحظ:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ ***وليسَ قُرْبَ قبرِ حَرْبٍ قبر. [٢١]

ج)التعقيد اللفظي: ما يرجع إلى اللفظ؛ أي أن الكلام الخالي من التعقيد اللفظي ما سلم نظمه من الخلل.

د)التعقيد المعنوي: ما يرجع إلى المعنى، يقول الخطيب القزويني:" الكلام الخالي من التعقيد المعنوي ما كان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهرا "، [٢٢]كقول العباس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوْا ------ وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُمُوْعَ لِتَجْمُدَا [٢٣]

فصاحة المتكلم: يقصد به الملكة التي يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح؛ أي صفة وجودية راسخة في نفس صاحبها والتي تمكنه من صياغة ضروب الكلام.

. المحور الثالث: موقف المحدثين من المعايير التي اعتمدها النحاة في انتقاء الكلام الفصيح.

معايير الفصاحة عند المحدثين:

إن معيار المحدثين حول الصحة والخطأ في اللغة، السماع و القياس؛ بمعنى كل ما سمع عن العرب وقيس عليه، فهو من كلام العرب لا شك في صحته ومن هذه المعايير:

أ)عدم ورود اللفظة في المعاجم : من المحدثين من يخطئ بعض العبارات المستعملة اليوم لأنها لم ترد في المعاجم العربية القديمة يقول حمادي محمد ضاري : " فهذا اليازجي الذي يمنع استعمال فعل بارح لأنه كما قال لم يرد في المعاجم العربية [٢٤] "

ب)الاستناد إلى تخطيء النحاة السابقين: يستند المحدثون في كثير من الأحيان في تخطيئاتهم إلى آراء السابقين ممن كانوا على منهجهم، وبالتالي لم يكونوا يكلفون أنفسهم جهدا للحكم على استعمال لغوي بالخطأ أو بالصواب .

---

[٢١] البيت من الرجز ، وجاء بلا نسبة في نهاية الإيجاز للفخر الرازي ص١٢٣.

[٢٢] ينظر: الإيضاح، ص ٢٤. وينظر: البيان والتبين،٦٩/١. سر الفصاحة،ص٩٨. شروح التلخيص،ص ٩٩/١.

[٢٣]ينظر: ديوان عباس بن الأحنف، بحر: الطويل.

[٢٤] ينظر: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث لحمادي محمد ضاري(منشورات وزارة الثقافة والإعلام)، العراق، ١٩٨١، ص ٢٠٠ و ٢٠١.

مآخذ المحدثين على معايير انتقاء الكلام عند القدماء :

محمد حسين آل ياسين:[٢٥]

يرى محمد حسين آل ياسين، أن تحديد الفارابي السابق الذكر للمعيار المكاني للقبائل التي أخذت منها اللغة الفصيحة غير صحيح يقول " و أرى أن في قول الفارابي – الذي يمثل وجهة النظر البصرية – أنه من المفروض أن يستعرض جميع اللهجات العربية، فيوضع على أساس هذا الاستعراض الشامل القواعد اللغوية، كما أن القرآن فيه من لغات القبائل أكثر من القبائل التي ذكرها الفارابي، ففي القرآن ما ينسب إلى لغات الأزد والأوس والخزرج وجرهم وحمير وحضرموت وغيرها كثير"[٢٦]

ثم يُتمم بقوله، لا خلاف بين علماء العربية في صحة الاستشهاد بالقرآن كله بل بوجوبه فيما اتفق فيه الاستعمال. ويطرح السؤال التالي: فلماذا استبعدت لهجات هذه القبائل العربية حين ينظر إليها على أنها لهجات تطرفت قبائلها في السكن، وؤخذ بها حين يستشهد بما استعمل القرآن من ألفاظها؟

د تمام حسان:

أما تمام حسان فيرى أن المعايير التي استند إليها النحاة في اختيار المادة اللغوية، بناء على رأي الفارابي، معايير تلفيقية لها أثرها في المعنى النحوي والصرفي. و كذلك يتساءل عما قد يرى أصحاب المناهج الحديثة في المعيار الزماني الذي بني عليه منهج النحاة ويقول:" إن المنهج الحديث يرتضي اتجاهين في البحث اللغوي ويفرق بينهما تفريقا جذريا، أولهما الاتجاه التاريخي الذي يرصد تغير الظواهر اللغوية من عصر لعصر فيختار من هذه الظواهر واحدة و يتتبع سيرها في تطورها على مر العصور والاتجاه الثاني وهو الاتجاه الوصفي الذي لا يقنع بالظواهر المنعزلة و إنما بتناول النظام كاملا متجانسا".

والمعنى أن المنهج الوصفي لا يرتضي تناول اللغة في طورين من أطوارها لأن المتتبع لأعمال تمام حسان يجد عددا من الملاحظات التي تنم عن اطلاع دقيق ومتفحص لما جادت به قريحة العلماء الأوائل للعربية، ولكنه لم يرض أن

---

[٢٥] محمد حسين آل ياسين : لغوي وأستاد جامعي وشاعر عراقي ، له دواوين شعرية عديدة وبحوث ودراسات لغوية وأدبية (ينظر معجم الشعراء مند عصر النهضة لإميل يعقوب ، ط١ ، دار صادر (بيروت) المجلد الثالث ص ٩٧٧.

[٢٦] ينظر: الحروف للفارابي، ص ٣٢٩.

يقدم تلك الملاحظات في ثوب تقليدي، بل حاول أن يمزج بين التراث والمعاصـرة من خلال مشـروع يهدف إلى تقديم قراءة جديدة للتراث اللغوي العربي وتحديد معاييره وفق المنهج الوصفي.

ثم يطرح السؤال التالي: هل ندين النحاة العرب في ضوء ما يقوله المحدثون ؟

ويجيب بقوله: "الرأي عندي أن نتوقف في ذلك معتذرين لهم من خلال الفارق الزمني بيننا وبينهم، لأنه يعطي للمحدثين من تجارب القرون السابقة ما لم يتهيأ مثله للنحاة العرب"[٢٧].

فيكون بهذا المنطلق قد عاب على القدماء اضـطراب منهجهم، كما يرى أن السـليقة اللغوية أو ما يعرف بالفصـاحة تكون بالاكتسـاب والتدريب وليس بالطبع والفطرة كما كان يعتقد القدماء. بل وشـدّد إنكاره هذا في قوله:" ولو كانت السـليقة طبعا في العربي، ما وجد اللحن ولو تعاونت على إيجاده عوامل الأمرض، والذي لا جدال فيه أن اللحن كان معروفا قبل الإسلام وبعد ظهوره".[٢٨]

إبراهيم أنيس:

يرفض إبراهيم أنيس هذه المعايير التي وضعها النحاة، ويعلل هذا الرفض باستشهاده بحديث الرسول (ص) حين سمع أن منافقا نال من عروبة سلمان الفارسي، فدخل المسجد غاضبا و قال:" أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا من أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي"[٢٩]

---

[٢٧] ينظر : الأصول لتمام حسان ص (١٠٢-١٠٣).

[٢٨] ينظر: مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٦، ج١، ص ٣٢٤.

[٢٩] ينظر: أسرار العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)، ط٦، ١٩٧٨ ، ص٣٧ .

و من المعروف أن الجاحظ الذي توفى في القرن الثالث الهجري (٩ م) لم يكن من رواة السنة الذين يحتج بحديثهم. والملاحظة الواضحة أن رواة الحديث الكبار والذين عاشوا في القرن الثالث أيضاً – أي معاصرين للجاحظ – والذين دونوا كتب الحديث المشهورة لم يروا هذا الحديث في كتبهم مثل صحيحي البخاري ومسلم وسنن الدرامي وأبي داؤود وابن ماجة وجامع الترمزي والنسائي. كما لم يرد في المسانيد مثل مسند أحمد وأبي يعلي الموصلي وعبد الله بن المبارك والشافعي ومصنف ابن أبي شيبة ومصنف الحميدي والمستدرك للحاكم النيسابوري . ولم أجد هذا أيضا في كتب التاريخ العام المشهورة مثل الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن كثير وابن الجوزي وابن خلدون. ويبدو واضحا أن جمهور المحدثين لم يقتنعوا بدرجة مصداقية الحديث فتجاهلوه وسكتوا عنه في كتبهم، ولم يتعرض إليه المؤرخون، ورواه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة وقال عنه "ضعيف جداً، وهو متروك كما قال الدارقطني والنسائي وغيرهما وكذبه غندر" ونَقَل عن ابن تيمية: "هذا الحديث ضعيف، وكأنه *مركب على مالك. لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه." وفي القرن العاشر الهجري (١٦ م) ظهر الحديث في كتابين أحدها كتاب "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" لشمس الدين الدمشقي ورواه عن ابن الخطيب وكتاب "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" لعلي المتقي ولم يعلقا عليه.

ويقول في المعيار المكاني أن العلماء قد فرقوا بين القبائل فأخذوا عن بعضها ورفضوا الآخر وقد رأى أن العلماء قد أسسوا فصاحة القبيلة على دعامتين :

الأولى: مقدار قرب مساكنها من مكة وما حولها.

الثانية: مقدار توغلها في البداوة.

فآخذ على النحاة مبالغتهم في الاحتجاج بلغة القبائل المتوغلة في البداوة، كما آخذهم في الاحتكام في مسائل اللغة إلى الأعراب دون تمييز بين المثقف وغير المثقف.

ومن جهة أخرى يعتقد المحدثون أن جمع النصوص اللغوية من اللهجات السابقة الذكر قد أوجد بعض الخلافات التي ظهر أثرها في التقعيد النحوي، ولو اكتفى علماء اللغة بلغة القرآن ولغة العصر الجاهلي لتركوا كثيرا من الأمور الخلافية. وأخذ النحاة القدماء عن القبائل التي ذكرها الفارابي يعتبر تعددا في المكان الأمر الذي كان له أثره في وضع القواعد النحوية .

خلاصة:

تمخض هذا البحث عن مجموعة من النتائج منها: إن مآخذ هؤلاء في حديثهم عن معايير القدماء تتمحور في نقاط أساسية هي: التشكيك في المعايير الزمانية والمكانية بحجة غموضها، والأخذ عن العرب مغالاتهم في الاستشهاد بالقبائل المتوغلة في البداوة ونقد منهج القدماء و وصفه بالاضطراب، ثم رفض فكرة أن الفصاحة أمر طبيعي تجري في دم العربي كما رأينا مع د تمام حسان.

وأثبت البحث أن المعيار الذي أخذت في ضوئه اللغة عن القبائل العربية هو معيار السلامة اللغوية.

ويوصي البحث:

بدراسة القبائل التي أخرجها العلماء كمعيار للفصاحة لأنها كانت لا تزال في أوج سلامتها وفصاحتها.

المصادر والمراجع المساعدة:

- ارتقاء السيادة في علم أصول النحو، الشيخ يحيى بن محمد أبي زكريا الشاوي المغربي الجزائري، تق و تح : الدكتور ع الرزاق عبد الرحمن السعدي، (العراق)،ط١،١١٤١هـ - ١٩٩٠ م .
- أسرار العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)،ط٦ .
- إصلاح المنطق، ابن السكيت، تح: أحمد بن محمد شاكر، دار المعارف .
- الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو –فقه اللغة – البلاغة)، تمام حسان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م .
- الإقتراح في أصول النحو، السيوطي، ضبطه وعلق عليه عبد الحكيم عطية .
- الألفاظ و الحروف، الفارابي، تح وتق وتع: محسن مهدي – دار المشرق، بيروت،١٩٦٩.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تح : أ. د . أحمد شتيوي، دار الغد الجديدة (القاهرة) ط١.
- البيان والتبين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ .
- جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام بن عاشور، الطاهر بن عاشور، تح: محمد الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط١(١٤٣٦هـ).
- حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، حمادي محمد ضاري،(منشورات وزارة الثقافة والإعلام)، العراق ، ١٩٨١.
- سر الفصاحة، الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
- شرح الفصيح لابن خالوي، تح وتع: د. ع الله عمر الحاج إبراهيم ود. خالد بن علي العمري، إصدار مركز البحوث والتواصل المعرفي .
- علم الفصاحة مقدمة في النظرية والتطبيق.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: الدكتور عبد الله درويش، دار العلوم القاهرة .
- الغريب المصنف لأبي عبيدة، تح : محمد المختار العبيدي .
- كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٧٣م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة، تح: ع الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،ط١.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين لسيوطي، شر وتع: محمد أبو الفضل إبراهيم /محمد جاد المولى / علي محمد البجاوي .
- معجم مقاييس اللغة ابن فارس، تح: ع السلام هارون، دار أحياء الكتب العربية،ط ١٣٦٦-١٣٦٩.
- مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان، عالم الكتب، ط١،٢٠٠٦.
- المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.